

" النأي عن المن والأذى "

ومن الأخلاق القرآنية عدم إتباع النفقة والصدقة والعمل الصالح بالمن والأذى ، يقول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ ﴿٣٤﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صِدْقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿٣٦﴾ وَمِثْلَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَانَتْ أَكْطَلُهَا ضَعْفَتِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٥﴾ أَيُّودٌ أَحَدَكُمُ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبْرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ فَاَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٧﴾ [سورة البقرة: ٢٦٢: ٢٦٦]. والمعنى : إن الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ولا يقصدون بإنفاقها إلا وجه الله ، ولا يعقبون ما أنفقوا من الخيرات ، والصدقات بالمن والأذى على من أحسنوا إليه ، مثل قوله : " إنني أحسنت اليك ، وقدمت لك خيرا ثم يذكره فإن ذلك أذى ، والله تعالى يقول: ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ . فالذين ينفقون ولا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى . هؤلاء لهم ثواب ما قدموا ، وجزء ما أحسنوا ، ولا يضرهم فزع يوم القيامة ، ولا هم يحزنون على فائت من زهرة الدنيا . ثم يبين الله - عزوجل- أن رد السائل بالتي هي أحسن ، والصفح عن الحاجة خير عند الله وأقصد من إعطائه ثم إيذائه ، أو تعيره ، بذل السؤال ، والله - سبحانه وتعالى- غني عن الخلق أجمعين ، حلِيم لا يعاجلهم بالعقوبة عند مخالفتهم لأوامره ، ثم أخبر الله - سبحانه وتعالى- عما يبطل الصدقة ، ويضيع الثواب ، ويذهب بخيرها وبراها ، ونفعها في الدار الآخرة . فيقول الله - عزوجل- : " يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صِدْقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ " . والمعنى : " يا أيها الذين آمنوا بالله ، وصدقوا برسوله لا تحبطوا ما أنفقتم بالمن والأذى ، مثله في ذلك مثل الذي يرائي الناس فيبطل بالرياء إنفاقه ، ولا يصدق بقاء الله ولا يرجوا ثواباً ، ولا يخشى عقاباً فمثله كمثل

الحجر الأملس الذي يكون عليه شيء من التراب يظنه الضان أرضاً طيبةً منبثةً فإذا أصابه مطر شديد أذهب عنه التراب فيبقى صلباً أملس ليس عليه شيء من الغبار أصلاً .

كذلك المنافق الذي ينفق ماله رياء الناس يظن أن له عملاً صالحاً فإذا كان يوم القيامة اضمحلت وذهبت ، ولهذا يقول - سبحانه وتعالى - : " ... لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ... " . يعني لا يجدون لهم ثواباً في الآخرة فلا أنتفع بشيء منها البتة ، والله لا يهدى هؤلاء إلى طرق الخير ، ولا إلى سبل النجاة والرشاد فالقرآن الكريم يؤكد أن المن والأذى يبطل الصدقة كما يبطل الرياء وضرب لهذا مثل " الصفوان " . وفي تفسير المراعى " إن الذين يبذلون أموالهم ينفقون بذلك مرضاة ربهم ، ولا يتبعون ذلك بمنهم على من أحسنوا إليهم ، ولا بإيذائهم ، لهم عند ربهم ثواب لا يقدر قدره ، ولا خوف عليهم حين يخاف الناس ، وتفزعهم الأهوال ، ولا هوبحزنون حين يحزن الباقون المسكون عن الإنفاق في سبيل الله ، إذ هم أهل السكينة والاطمئنان ، والسرور الدائم .

واحكمة في تعليق هذا الثواب على ترك المن والأذى أن الإنفاق في سبيل الله يراد به وجه الله ، وطلب رضاه ، فلا وجه لمن المنفق على من أنفق عليه لأنه لا يد له قلبه ولا صنيعه له عنده ، تستحق - إن لم يكافئه عليها - المن والأذى فعلى الله مثوبته دون من أنفق عليه . ثم يضع الله - سبحانه وتعالى - دستوراً الحسن المعاملة بين الناس فقال : " قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ " يعني كلام حسن ، ورد جميل على السائل ، وستر لما وقع منه من الألفاظ في السؤال وغيره ، أنفع لكم ، وأكثر فائدة من صدقة فيها أذى ، لأنه وإن كان قد خيب رجاءه ، ولكن أفرح قلبه ، وهون عليه ذل السؤال . والإنفاق غير مقصود به التصدق على ذوى الحاجات والمعوزين فحسب ، بل إن التبرع لبناء مدرسة ، أو مستشفى ، أو لإسهام في تعبيد الطريق أو تمهيد ممشى ، أو التبرع لكفالة اليتيم ، أو مساعدة طالب العلم ، أو فك العانى الذي أنقذته الديون وهكذا .

يعد كل ذلك إنفاقاً في سبيل الله وجميع أعمال البر والخير تُعدُّ إنفاقاً في سبيل الله ، وإن لم يكن لدى المسلم مال يتبرع به فعليه التبرع بالكلمة الطيبة والتشجيع لغيره ، على الإنفاق ، وعلى فعل الخير . يقول الشاعر :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

أما الصدقة التي يتبعها أذى فهي مشوبةٌ بضرٍ ما يتبعها من الإيذاء ، ومن أذى فقد بغض نفسه إلى الناس بظهور في مظهر البغض لهم والسلم والولاء خير من العداوة والبغضاء .

ومن الخير للأمة أن يظهر أفرادها في مظهر المتعاونين، يقول - سبحانه وتعالى - :

﴿..... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ...﴾ [سورة المائدة: ٢]

وجماع هذا القول أن مقابلة المحتاج بكلمة تسره؛ ترضيه خير له من الصدقة التي يتبعها الإيذاء بسوء القول ، أو سوء المقابلة واللقاء . ولا فارق بين أن يكون المحتاج فرداً . أو جماعة ، أو دولة ، أو أمةً مثل التبوع لتسليح الجيش الاسلامي ليصد غارات المعتدين ، ويذود عن الأرض ، والعرض وهو يسمى في عصرنا " بالجهود الحربي " فحين تكون مع الدولة بقلبك ولسانك أجدى لها وأنفع من التبوع بالمال مع مقابلة سوء ، وفعل الأذى . وقد قررت الآية الكريمة مبدأ عاماً في الشريعة الاسلامية ، وهو داء الفساد مقدم على جلب المصالح . فقد دلت على أن الخير لا يمكن أن يكون طريقاً للشر ، وعلى أن الأعمال الصالحة بحيث أن تكون خالية مما يكدرها من الشوائب التي تفسدها ، وتذهب بخيرها وفائدتها . فالذي لا يملك أن ينفق أو يتصدق على الفقير فليكلمه ويسعه بكلمة طيبة ، فإن الله غنى عن صدقة عباده حيث أنه لا يقبل إلا الطيب من العمل .

وفي هذا تكريم للفقراء وتوجيه لهم أن يتعلقوا بحبل الله ، ويستعينوا بالله ، وقد بين الله - سبحانه وتعالى - أن المن والأذى يهدم الصدقة بل هو هادم لفائدة الصلحة وهو الثواب الجزيل من الله - سبحانه وتعالى - . وهو تخفيف لبؤس الفقراء والمحتاجين وكشف أذى الفقر عنهم إذا كانت الصدقة للأفراد ، وتنشيط القائمين بخدمة الأمة ومساعدتها إذا كانت الصدقة في مصلحة عامة . إذ أن كل عمل لا يؤدي إلى الغاية منه فقد حبط وبطل كأن لم يكن ، فما بالك إذا أتبع بضد الغاية ونقيضها ؟ . فالإسلام ينهى المسلم عن ارتكاب ما يفسد صدقته من المن والأذى وحتى تكون الصدقة خالصةً لوجهه - سبحانه وتعالى - ، فالمرأى وصاحب المن والأذى عمله غير صحيح وغير مقبول لدى الله - عز وجل - . فالمنافق المرأى صفته كصفة " تراب " على حجر أملىس نزل عليه مطر شديد ، فأزله ، وترك الحجر صلباً نقيلاً لا تراب عليه .

ووجه الشبه بينهما هو أن الناس يرون أن لهؤلاء المرأين أعمالاً كما يرى التراب على " الصفوان " فذا جاء يوم القيامة وصاروا إلى الله - عز وجل - اضمحل ذلك وذهب ،

لأنه لم يكن لله ، كما يذهب الوابل من المطر كما كان على الصفوان ، فبتركه أملس لا شيء عليه. يقول الشاعر:

ثوب الرياء يَشْفُ عما تحته فإذا اكتسيت به فإنك عار

فالرياء والمن والأذى منافٍ للإخلاص ، فلا أجر عند الله إلا للمخلصين في أعمالهم الذين يتحررن تزكية نفوسهم ، وإصلاح أحوالهم والله لا يهدى القوم الكافرين إلى ما فيه خيرهم ، ورشادهم ، فإن الإيمان هو الذى قلب صاحبه إلى الاخلاص ، ووضع النفقات في مواضعها ، والاحتراس من الإتيان بما يذهب فائدتها . وفي هذا تعريض بأن كلاً من الرياء والمن والأذى من صفات الكافرين التى ينبغى للمؤمنين أن يتجنبوها . هذه توجيهات ريبانية وأرشادات قرآنية ، لوأن المسلمين اتبعوها ، وساروا على هديها لسعدوا في دنياهم ، وفي آخراهم ولسادوا الدنيا وقادوا العالم ، كما كان أسلافهم . إنهم صنعوا امجاد وبطولات ومنحوا البلدان قاصديها ، ودانيها ، ونشروا العلم والأخلاق وحثوا الناس على الجهاد في سبيله ، وعلى الانفاق دون من وأذى ولا رياء فكانوا بحق مثلاً صالحاً ، ونماذج فريدة في السلوك والعمل الصالح ، فبذلك طابت نفوسهم ، وصفت قلوبهم ، وطهرت سرائرهم ، وخلصت أعمالهم ، فسعدوا في الدنيا والآخرة ، ففى الدنيا بحسن السيرة ، وفي الآخرة بالفوز بجنت عرضها السماوات والأرض ، أعدت لهم ، ولأمثالهم من المتقين الصالحين النائين عن الرياء والمن والأذى والنفاق (١).

ويعضد الآية السالفة الذكر آية أخرى. وهى قول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ آسَلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ [سورة الحجرات: ١٧]. فالمراد : أن هؤلاء يعدون إسلامهم عليك يا محمد - ﷺ - منة وتفضيلاً يستوجبون عليها الحمد والثناء ، فقل لهم يا محمد - ﷺ - : "... قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ ...". فإن نفع إسلامكم يعود عليكم، ولله المنة العظمى عليكم ، وذلك بالهداية للإيمان ، والتثبيت عليه ، إن كنتم صادقين فى دعوى الإيمان . وفي هذا ما إيماء وإشارة إلى أنهم كانوا كاذبون فى ادعائهم الإيمان . وقد روى أن النبى - ﷺ - قال للأنصار " يوم حنين " : " يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم

1- صفوة التفاسير ج ١ ، ص ١٦٨ وما بعدها بتصرف .

♦ أسباب النزول للواجدى ص ٤٧ .

♦ تفسير المراعى ج ١ ، ص ٢٩ - ٣٥ بتصرف .

متفرقين فالفلكم الله بي؟ وكنتم عالة فأعناكم الله بي؟ " فكلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن وأفضل .

والله - عز وجل - سمي ما كان منهم إسلاماً وخضوعاً، لا إيماناً، وذلك إظهاراً لكذبهم في قولهم "أما" ثم لما منوال على رسول الله - ﷺ - بما كان منهم قال - سبحانه وتعالى - لرسوله - عليه الصلاة والسلام - : أيعدون عليك بما ليس جديراً أن يعتد به من إسلامهم الذي سموه إيماناً وليس بذلك؟ بل الله هو الذي يعتد عليهم إيمانهم إن صدقوا، فهو قد أمدهم بهديه وتوفيقه. ثم أعاد الإخبار بعلمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة الحجرات: ١٨). ويقول الله - سبحانه وتعالى - في هذا المصمار الأخلاقي لسيدنا محمد - ﷺ -: "ولا تمنن تستكثر". فالله - عز وجل - يوجه نبيه - عليه الصلاة والسلام - إلى إنكار ذاته، وعدم المن بما يقدمه من الجهد، أو استكثاره، واستعظامه: "ولا تمنن تستكثر" وهو سيقدم الكثير، وسيبذل الكثير، وسيلقى الكثير من الجهد والتضحية والعناء، ولكن ربه يريد منه ألا يظل يستعظم ما يقدمه، ويستكثره، ويمنن به، وهذه الدعوة لا تستقيم في النفس تحس بما تبذل فيها.

فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه، بل حين لا تستشعره، من الأصل لأنها مستغرقة في الشعور بالله، شاعرة بأن كل ما تقدمه هو من فضله، ومن عطاياه. فهو فضل يمنحها إياه وعطاء يختارها له، ويوفقها لنيله، وهو اختيار واصطفاء وتكريم يستحق الشكر لله، ولا المن والاستكثار.

ويقول بعض المفسرين ولا تُعْطِ عطاءً يا محمد - ﷺ - وتسنكثره، لأن الكريم يستقل ما يعطى وإن كان كثيراً، وأعط عطاءً من لا يخاف الفقر. ويقول "ابن عباس" - رضي الله عنهما -: "لا تعطى عطية تلتبس بها أفضل منها". بمعنى لا تعط شيئاً ليعطى أكثر منه. وسر النبي أن يكون العطاء خالياً عن أنتظار العوض تعففاً وكمالاً، فإن النبي - ﷺ - مأمور بأشرف الآداب وأجل الأخلاق. وفي ذات المعنى يقول الحق - سبحانه وتعالى -: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأُ﴾ [سورة البلد: ٦]. والمعنى: إنهم إذا طلب اليهم أن يعملوا عملاً من أعمال البر قالوا: "إننا ننفق الكثير من أموالنا في المفخر والمكارم، ولم يعلموا أن المكرم ما عده الله مكرمه، والبر ما اعتبره الله براً، فليس من البر إنفاقهم المال في مشاققة الله ورسوله، ولا إنفاقهم طائل الأموال في الصد عن سبيل الله، والكيد للذين آمنوا بالله ورسوله.

ويقول " ابن كثير " - رحمه الله تعالى - في تفسير هذه الآية: " يعنى بقول ابن آدم : " أنفقت ما لا لبدا ، أى كثيراً . ﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ [سورة البلد: ٧]. أليسب أن لم يره، لله- عز وجل- . فهذه الآيات تحت المسلم على التحلى بأخلاق القرآن الكريم وأن ينفق مما آتاه الله- سبحانه وتعالى- ولا تبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل على نفسه ، وأن يكون ذلك الإنفاق خالصاً لوجهه تعالى ، لا ينتظر جزء إلا من الله- عز وجل- وهو خير من يثيب على البذل والعطاء والحسنة بعشر أمثالها ويضاعفها الله لمن يشاء .

يقول الله - سبحانه وتعالى- : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: ٢٦١]. وقد عنى بتطبيق هذا المثل علمياً بعض أعضاء الجمعية الزراعية " بمصر" فى مزرع " القمح " التى لها فى التفتيش النموذجى وفى غيره ، فهدتهم التجارب إلى أن الحبة الواحدة لا تنبت سنبله واحدة بل أكثر ، وقد وصلت أحياناً إلى " أربعين " وأحياناً إلى " ست وخمسين " وأحياناً إلى " سبعين حبة " أو أكثر . وقد عثر عام ١٩٤٢ م أحد مفتشى الجمعية الزراعية بمصر أنه الذكر على " سنبله " أنبتت " سبعاً ومائة حبة " ، وعرض نتيجة بحثه على الإخصائين من رجال الجمعية ، وغيرهم فى حفل جامع وأوا تلك السنبله وعدوها عدا ، فاتفقت كلمتهم على صدق ما عدو رأى ، وشكروه على جهوده الموفقة ، وإن الزمان كفىل بتأييد قضايا الكتاب الكريم مهما طال عليها الأمد ، وكلما تقدم العلم ظهر للناس صدق ما أخبر به القرآن الكريم . فهو الحق ، والصدق ، والنجاة ، ليس بالهزئ ، ولا يأتیه الباطل من بين أيديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . حقاً إنه من عند الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً . إنه الحبل المتين ، وكلام الله رب العالمين (١) .

1 - صفوة التفسير ، ج ١ ، ص ١٦٨ وما بعدها ، ج ٣ ، ص ٢٣٨ .
 □ تفسير المراغى ج ١ ، ص ٢٨ وما بعدها ، ج ٩ ، ص ١٤٨ .
 □ تفسير ابن كثير ج ٤ ، ص ٥١٢ .
 □ مختصر تفسير ابن كثير ج ٣ ، ص ٥٦٨ .
 □ التسهيل لعلوم التنزيل ج ٤ ، ص ١٦٠ .
 □ فى ظلال القرآن الكريم للإمام سيد قطب ج ٦ ، ص ٣٧٥٥ .